الرضى عنك ؛ لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك في الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارهة وهي لاعنةٌ له ، وهي مُبغضة له ولفعْله ، فإذا كان يوم القيامة وانحلّت من إرادته ، وخرجتْ من سجن سيطرته ، شهدتْ عليه بما كان منه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أي : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنيّ عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذي جعله خليفة له في أرضه ، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوّمات الحياة

كلها من أرض وسماء ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق ، إذن : فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضرّه سبحانه فى شىء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن ؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفى صالحهم ، لكى تستمر حركة حياتهم ، وتتساند ولا تتعاند ؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه منهجاً نسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ، من الخالق الذى يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ، فلو كان منهجَ بشرٍ لبشر لكان لك أنْ تتأبّى عليه ، أما منهج الله فلا ينبغى الخروج عليه .

لذلك نسمع فى الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع الذى يقطعه الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذى أمر بذلك ، فلا اعتراضَ عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا ولم تقعُدْ .

ومن كماله سبحانه وغنَاهُ عن الخَلْق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم من أحكام أو تجنٍّ أو تقصير ؛ ذلك لأن كل شىء عنده بمقدار ، ولا يُقضى أمر فى الأرض حتى يُقضى فى السماء ، فإذا كلّفْتَ واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصّر فى قضائها ، أو رفض ، أو سعى فيها ولم يُوفّق نجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمّل الخالق سبحانه عن عباده ، ويُعفيهم من هذا الحرج ،

ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فلكل شيء ميلاد ، ولا داعيَ لأنْ نسبق الأحداث ، ولننتظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يُعلّمنا الإسلام قبل أن نَعد بعمل شيء لا بُدَّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا - إذن - في حماية المشيئة الإلهية إنْ وُفّقْتُ فبها ونعْمت ، وإنْ عجزتُ فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضِّغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكأن الحق سبحانه يقول لك : تمهل فلكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيتَ حاجتك فاعلم أن الذي كلَّفْته بها ما قضاها لك في الحقيقة ، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير في الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا غير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر في مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا في ( الخضرة ) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التي حان وقت شفائها .

وصدق الشاعر حين قال :

والنـاسُ يلْحون الطَّبيبَ وإنَّما خَطَأ الطَّبيبِ إصَـابَةُ الأقْدارِ

فيقولُ الحق تبارك وتعالى : ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ..﴾ [الإسراء: ١٥] أى : لصالح نفسه .

والاهتداء : يعنى الالتزام بمنهج الله ، والتزامك عائد عليك ، وكذلك التزام الناس بمنهج الله عائد عليك أيضاً ، وأنت المنتفع فى كل الأحوال بهذا المنهج ؛ لذلك حينما ترى شخصاً مستقيماً عليك أن تحمد الله ، وأن تفرحَ باستقامته ، وإياك أن تهزأ به أو تسخر منه ؛ لأن استقامته ستعود بالخير عليك فى حركة حياتك .

وفى المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا..﴾ [الإسراء: ١٥]

أى : تعود عليه عاقبةُ انصرافه عن منهج الله ؛ لأن شرَّ الإنسان فى عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرِّه ، ويشقى به المجتمع .

ومن العجب أن نرى بعض الحمقى إذا رأى مُنحرفاً أو سيء السلوك ينظر إليه نظرة بُغْض وكراهية ، ويدعو الله عليه ، وهو لا يدرى أنه بهذا العمل يزيد الطين بلة ، ويُوسِّع الخُرْق على الراقع كما يقولون .

فهذا المنحرف فى حاجة لمَنْ يدعو الله له بالهداية ، حتى تستريح أولاً من شرِّه ، ثم لتتمتع بخير هدايته ثانياً . أما الدعاء عليه فسوف يزيد من شرِّه ، ويزيد من شقاء المجتمع به .

ومن هذا المنطلق علَّمنا الإسلام أن مَنْ كانت لديه قضية علمية تعود بالخير ، فعليه أنْ يُعديها إلى الناس ؛ لأنك حينما تُعدِّى الخير

إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خِلالك الحميدة ، فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .

لذلك حرَّم الإسلام كَتْم العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص نفسه وعلى المجتمع .

يقول ﷺ :« من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[1] .

وكذلك من الكمال الذى يدعونا إليه المنهج الإلهى أن يُتقِن كل صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صَنْعة صَنْعته ، فالإنسان فى حركة حياته يُتقِن عملاً واحداً ، لكن حاجاته فى الحياة كثيرة ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذى يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ، وهو يحتاج فى حياته إلى مِهَن وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب والمعلم والمهندس والحداد والنجار والفلاح .. الخ .

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسخَّر الله له مَنْ يتقن له حاجته ، ولو رَغْماً عنه ، أو عن غير قصد ، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس فى كمال ، فإنْ أتقنتَ عملك فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً ، فسوف يُيسِّر الله لهم سبيل إتقان حاجتك ، من حيث لا يريدون ولا يشعرون .

---

(١) أخرجه ابن حبان ( ٩٦ ـ موارد الظمآن ) ، والحاكم فى مستدركه (١٠٢/١) وقال : هذا إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشيخين وليس له علة . وأقره الذهبى .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

أى : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد ، ولا يُؤاخَذ أحدٌ بجريرة غيره ، وكلمة : ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ .. ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

من الوزر : وهو الحِمْل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أى الذى يحمل الأعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك ، أو الأمير .

فعدْلُ الله يقتضى أنْ يُحاسب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمى أحد ذنبه على أحد ، كما قال تعالى : ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ..﴿٣٣﴾﴾ [لقمان]

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون فى القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر فى الآية الأولى ، والوِزْر فى الآيتين الأخيرتين .

ففى الأولى وزر ذاتىٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى نفسه ، فيجب أنْ يتحمّل وزْر ضلاله . أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ

غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم .

ويُوضِّح لنا هذه القضية الحديث النبوى الشريف : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أنْ تُعاقبنى عليها لا بُدَّ أن تُعلِّمنى أن هذه مخالفة أو جريمة ( وهى العمل الذى يكسر سلامة المجتمع ) ، فلا جريمةَ إلا بنصٍّ ينصُّ عليها ويُقنِّنها ، ويُحدِّد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها فى الجرائد الرسمية لكى يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إنْ خالفوا أو تعرَّضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى فى القانون الوضعى نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان فى أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أنْ نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترضَ عليك من منطلق هذه الآية .

أما أنْ يُجرَّم هذا العمل ، ويُعلَن عنه فى الصحف الرسمية ، فلا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

حجة لمَنْ جهله بعد ذلك ؛ لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يُعفى من العقوبة .

فكان قول الله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ⑮﴾ [الإسراء] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعلام ، حيث أرسل الله الرسول يُعلِّم الناس منهج الحق سبحانه ، ويُحدِّد لهم ما جرَّمه الشرع والعقوبة عليه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ㉔﴾ [فاطر]

ويقول : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ[1] مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ .. ⑲﴾ [المائدة]

إذن : قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير ﷺ .

وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا : إن كانت الحجة قد قامت على مَن آمن برسالة محمد ﷺ ، فما بال الكافر الذى لم يؤمن ولم يعلم منهج الله ؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره .

نقول : لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركَّبه فيه خالقه سبحانه من ميزان إيمانى هو الفطرة ، هذه الفطرة هى المسئولة عن الإيمان بقوة قاهرة وراء الوجود ، وإنْ لم يأتِ رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :

هَبْ أنك قد انقطعتْ بك السُّبل فى صحراء واسعة شاسعة لا تجد

---

(١) الفترة : هى المدة من الزمن التى تفصل بين نبيين . [ القاموس القويم ٢/٧١ ] .

فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فنمْتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

بالله ألاَ تفكِّر في أمرها قبل أن تمتدّ يدُك إليها ؟ ألاَ تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عَمَّنْ أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بُدَّ أنْ يهتديَ إلى أن للكون خالقاً مُبْدعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليدَ المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التي خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقوِّمات والإمكانيات ، وجدنا أمام أعيننا آيات كثيرة دالّة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك . خذ مثلاً الشمس التي تنير الكون على بُعْدها تطلع في الصباح وتغرب في المساء ، ما تخلَّفتْ يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن موعدها ، ألاَ تسترعي هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً بـ « أديسون » الذي اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة في حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهي عُرْضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التي لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه ؟

والعربي القُحُّ الذي ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْر البعير وآثار الأقدام استدلَّ بالأثر على صاحبه ، فقال في بساطة العربي : البَعْرة تدلّ على البعير ، والقدم تدلّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : بالفطرة التكوينية التى جعلها الله فى الإنسان يمكن له أن يهتدى إلى أن للكون خالقاً ، وإنْ لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحينما يأتى رسول من عند الله يساعده فى الوصول إلى ما يبحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقه ، وأن هذه القوة الخفية التى حيَّرتْك هى ( الله ) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومَن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[1] ، ولم يعارضه أحد ولم يَدَّعِ أحد أنه إله مع الله ، وبذلك سلِمَتْ له سبحانه هذه الدعوى ؛ لأن صاحب الدعوة حين يدَّعيها تسلم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانية فى الإنسان هى التى عنَاهَا الحق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

وهذا هو العَهْد الإلهى الذى أخذه الله على خَلْقه وهم فى مرحلة الذَّرِّ ، حيث كانوا جميعاً فى آدم ـ عليه السلام ـ فالأنْسَال كلها تعود إليه ، وفى كل إنسان إلى يوم القيامة ذرة من آدم ، هذه الذرة هى التى شهدتْ هذا العهد ، وأقرَّتْ أنه لا إله إلا الله ، ثم ذابتْ هذه الشهادة فى فطرة كل إنسان ؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافر الذى أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنها ، وهى تدعوه

---

(١) يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

إلى معـرفة الله : كـيف تشعـر بالجوع فـتطلب الطعـام ؟ وكيف تشـعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرأيت الجـوع أو لمستَه أو شَمَمْـته ؟ إنها الفطرة والغريزة التى جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه ؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العـاقل عن ربه وخالقه فى حين أن الكون كله من حوله بـكل ذراته يُسبِّح بحمـد ربّه ، فذراتُ الكون وذراتُ التكوين فى المـؤمن وفى الكافر تُسبِّح بحـمد ربهـا ، كما قـال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. (٤٤)﴾

[الإسراء]

فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيـك مُسبِّحة ، فإن كـانت ذرات المؤمن حـدث بينه وبين ذرات تكوينه انسـجام واتفـاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبـيح ذراته وأعضـائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنْسجماً مع نفسه مع تكوينه المادى .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنـسان وبين ذرّاته وأعضـائه فى ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذرّاته وأعضاؤه راضية عنه تُحبه وتُحب البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته فى طاعة الله ، فـترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغـفل عينه ساعةً من ليل أو نهار تكفيـه ذلك ؛ لأن أعضاءه فى انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ [الذاريات]

وكان النبى ﷺ تنام عـينه ولا ينام قلبه[(١)] ، لأنه فى انسجام تام

(١) عن أنس رضى الله عنه قـال : كان النبى ﷺ تنام عيناه ، ولا ينام قـلبه . أخرجـه الحاكم فى مستدركه (٢/٤٣١) وقال : صحـيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرج مسلم من حديث عائشة (٧٣٨) : « يا عائشة إن عينىّ تنامان ولا ينام قلبى » .

مع إرادته ﷺ . وما أشبه الإنسان في هذه القضية بسيد شرس سيء الخُلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سُوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادي له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقته .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقادةً له لما طاوعتْه ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أنْ تفكّ من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتنطق بلسان مُبين ، وتشهد عليه بما اقترف في الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضاءه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بُدّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان في تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وهنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسبّح الله بدون داود ؟

الميزة هنا لداود ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه في تسبيحه وكأنه

( كورس ) أو نشيد جماعى تتوافق فيه الأصوات ، وتتناغم بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ⑩ ﴾ [سبأ]

أى : رَجِّعى معه ورَدِّدى التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أى لغته ، فكان يسمع النملة وهى تخاطب بنى جنسها[1] ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لِمَنْ يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً :

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ .. ⑲ ﴾ [النمل]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحينما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون : سبَّح الحصى فى يد النبى ﷺ نقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبِّح فى يده ﷺ كما يُسبِّح فى يد أبى جهل ، لكن الميزة أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده ، وهذه من معجزاته ﷺ .

---

(١) وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والإنس والطير قالت نملة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑱ ﴾ [النمل] .

(٢) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . ومعنى قول سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ⑲ ﴾ [النمل] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ .

والحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهى كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شىء دونك حياة أيضاً ، لكن ليستْ كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فكل ما يُطلق عليه شيء مهما قَلَّ فهو هالك ، والهلاك ضد الحياة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال] فدلَّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فإن اهتدى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذى يُعْلمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن : لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن الله ، ويُنبِّه الفطرة الغافلة عن وجوده تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يعطينا مثالاً لعاقبة الخروج عن منهج الله تعالى ؛ لأنه سبحانه حينما يُرسل رسولاً ليُبلِّغ منهجه إلى خَلْقه ، فلا عُذْرَ للخارجين عنه ؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ، الذي يستحق منا الطاعة والانقياد . وكيف يتقلب الإنسان فى نعمة ربه ثم يعصاه ؟ إنه رَدٌّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذى

يسوقه إليك ليل نهار ، بل فى كل نَفَسٍ من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عُذْر لمَنْ خرج عنه ، ولذلك يقولون : « من يأكل لقمتى يسمع كلمتى » .

كما أن هذا المنعم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك فى وقت مناسب ، فى وقت استوت فيه ملكاتُكَ وقدراتُكَ ، وأصبحتَ بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربع فى نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأوْلَى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتُنفِّذه أمراً ونهياً ؛ لأنه سبحانه أوجدك من عدم وأمدَّك من عُدم .

والمتأمل فى قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يُكلِّف بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا..(١٣٢)﴾ [طه]

وقد شرح لنا النبى ﷺ هذه القضية فقال : « مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] .

وهذا التكليف وإنْ كان فى ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه فى حقيقته من الله تعالى فهو الآمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول فى هذه السنّ من القريب المباشر المحسّ أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسّة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فإذا ما كلفه أبوه كان أدْعَى إلى الانصياع والطاعة ؛ لأن الولد فى هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقى ، وهو الله تعالى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (١٨٧/٢) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك أمر الأب أن يعوّد ولده على تحمُّل التكليف وأن يعاقبه إنْ قصَّر ؛ لأن الآمر بالفعل هو الذى يُعاقب على الإهمال فيه . حتى إذا بلغ الولد سنَّ التكليف الحقيقى من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْس بالتكليف وتعوُّد عليه ، وبذلك يأتى التكليف الإلهى خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

أما إن أخذتَ نعم الله وانصرفتَ عن منهجه فطغيْتَ بالنعمة وبغيتَ فانتظر الانتقام ، انتظر أَخْذه سبحانه وسنته التى لا تتخلف ولا تُردُّ عن القوم الظالمين فى الدنيا قبل الآخرة .

واعلم أن هذا الانتقام ضرورى لحفظ سلامة الحياة ، فالناس إذا رأوا الظالمين والعاصين والمتكبرين يرتعُونَ فى نعَم الله فى أمن وسلامة ، فسوف يُغريهم هذا بأن يكونوا مثلهم ، وأنْ يتخذوهم قدوة ومثلاً ، فيهم الفساد والظلم وينهار المجتمع من أساسه .

أما إنْ رأوا انتقام الحق سبحانه من هؤلاء ، وشاهدوهم أذلاَّء منكسرينَ ، فسوف يأخذون منهم عبرة وعظة ، والعاقل مَن اعتبر بغيره ، واستفاد من تجارب الآخرين .

فالانتقام من الله تعالى لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ، وكم رأينا من أشخاص وبلاد حاقَ بهم سوء أعمالهم حتى أصبحوا عبرةً ومُثْلة ، ومَنْ لم يعتبر كان عبرة حتى لمَنْ لم يؤمن ، وبذلك تعتدل حركة الحياة ، حيث يشاهد الجميع ما نزل بالمفسدين من خراب ودمار ، وإذا استقرأت البلاد فى نواحى العالم المختلفة لتيسَّر لك الوقوف على هذه السُّنة الإلهية فى بلاد بعينها ، ولاستطعْتَ أن تعزو ما حدث لها إلى أسباب واضحة من الخروج عن منهج الحق سبحانه .

وصدق الله حين قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

وإياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه ، فلا بُدَّ أن يأتي اليوم الذى يأخذهم فيه أخْذَ عزيز مُقْتدر ، وإلاَّ لكانت أُسْوة سيئة تدعو إلى الإفساد فى حركة الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء]

الآفة أن الذين يستقبلون نصَّ القرآن يفهمون خطأ أن ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ مترتبة على الأمر الذى قبلها ، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذى أمرهم بالفسق ، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة ، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين ، فتعالوا نَرَ أوامر الله فى القرآن :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴿٥﴾ ﴾ [البينة]

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [النمل]

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس]

فأمْر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير ، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء ، كما ذكر القرآن الكريم ، وعلى هذا يكون المراد من الآية : أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا ، ولكنهم خالفوا وعَصَوْا وفسقوا ؛ لذلك حَقَّ عليهم العذاب .

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . يقول تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة] . أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه [ القاموس القويم ١/٢٦٩ ] .

والأمر : طَلَب من الأعلى ، وهو الله تعالى إلى الأدنى ، وهم الخَلْق طلب منهم الطاعة والعبادة ، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا ؛ لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم . و ﴿ قَرْيَةً ﴾ أى أهل القرية .

وقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى : وجب لها العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٣٣) ﴾ [يونس]

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلَم حركة الحياة ، وليحمى المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى : خربناها ، وجعلناها أثراً بعد عَيْن ، وليستْ هذه هى الأولى ، بل إذا استقرأتَ التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يُبْقِ منها إلا آثاراً شاخصة شاهدة عليهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾

فأين عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح ؟ إذن : فالآية قضية قولية ، لها من الواقع ما يُصدِّقها .

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ .. (١٧)﴾ [الإسراء]

دَلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فيما قبل نوح ؛ لأن الناس كانوا قريبي عَهْد بخَلْق الله لآدم ـ عليه السلام ـ كما أنه كان يُلقِّنهم معرفة الله وما يضمن لهم سلامة الحياة ، أما بعد نوح فقد ظهر الفساد والكفر والجحود ، فنزل بهم العذاب . الذى لم يسبق له مثيل .

قال تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[1] (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ولنا وَقْفة سريعة مع هذه الآيات من سورة الفجر ، فقد خاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦)﴾ [الفجر]

و ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى : ألم تعلم ؛ لأن النبى لم يرَ ما فعله الله بعاد ، فلماذا عدل السياق القرآنى عن : تعلم إلى تَرَ ؟

---

(١) الحجر : العقل ، لأنه يمنع صاحبه ويحجزه عما لا يليق به . قال تعالى : ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾ [الفجر] . أى : لصاحب عقل . [ القاموس القويم ١/١٤٤ ] .

قالوا : لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ١ ﴾ [الفيل]

حيث وُلِد رسول الله فى عام الفيل ، ولم يكن رأى شيئاً .

وفى آيات سورة ( الفجر ) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التى لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة التى لفتتْ أنظار العالم كله ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝ ٨ ﴾ [الفجر]

أى : لا مثيلَ لها فى كل حضارات العالم ، فى حين قال عن حضارة الفراعنة : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝ ١٠ ﴾ [الفجر]

مجرد هذا الوصف فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ .. ۝ ١٧ ﴾ [الإسراء]

كَمْ : تدل على كثرة العدد .

والقرون : جمع قرن ، وهو فى الاصطلاح الزمنى مائة عام ، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً فى الحياة ، ولو على مبدأ من المبادىء ، وتوارثه الناس فيما بينهم .

وقد يُطلَق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول : قرن نوح ، قرن هود ، قرن فرعون . أى : الفترة التى عاشها .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ ١٧ ﴾ [الإسراء]

أى : أنه سبحانه غنىٌ عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء :

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ[1] الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر]

فلا يحتاج لمَنْ يخبره ؛ لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل : طالما أن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم ؟

نقول : لأن السؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين :

الأولى : كأنْ يسألَ الطالب أستاذه عن شىء لا يعلمه ، فالهدف أنْ يعلم ما جهل .

والأخرى : كأن يسأل الأستاذ تلميذه فى الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعله شاهداً على نفسه ، كما قال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر] قال : الرجل يكون فى القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أنه ينظر إلى عورتها [ أورده السيوطى فى الدر المنثور ٧/٢٨٢] .

كما تقول : كفى بفلان كذا ، أى : أنك ترتضيه وتثقُ به ، فالمعنى : يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره ، وقد سبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى فى يده كل السلطات حينما يقضى : السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، وهو سبحانه غنىٌّ عن الشهود والبينة والدليل .

إذن : كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً . ولأن الحق سبحانه خبير بصير بذنوب عباده ، فعقابه عَدْل لا ظلمَ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا (١) مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، خلق له الكون كلّه بما فيه ، وخلق له جميع مُقوّمات حياته ، ووالى عليه نعَمه إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدم ، وجعل من مُقوّمات الحياة ما ينفعل له وإنْ لم يُطلب منه ، كالشمس والقمر والهواء والمطر ... الخ فهذه من مُقوّمات حياتك التى تُعطيك دون أنْ تتفاعلَ معها .

ومن مُقوّمات الحياة مَا لا ينفعل لك ، إلا إذا تفاعلتَ معه ،

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصلَى بالنار . [ لسان العرب - مادة : صلا ] .

كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها قد انفعلتْ لك ، وأعطتْك الإنتاج الوفير .

والمتأمل فى حضارات البشر وارتقاءاتهم فى الدنيا يجدها نتيجة لتفاعل الناس مع مُقوِّمات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتتفاعل معهم مُقوِّمات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .

وقد يرتقى الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من مُقوِّمات الحياة ، والذى يعطيه دون أنْ يتفاعل معه ، استفادة جديدة ، ومن ذلك ما توصّل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

إذن : فهذه نواميس فى الكون ، الذى يُحسِن استعمالها تُعطيه النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثْرى الإنسان حياته ويرتقى بها ، وهذا ما أسْميناه سابقاً عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

أى : عطاء الدنيا ومتعها ورُقيها وتقدّمها .

﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

أجبْنَاهُ لما يريد من متاع الدنيا .

ولا بُدَّ لنا أنْ نتنبه إلى أن عطاء الربوبية الذى جعله الله للمؤمن

والكافر ، قد يغفل عنه.المؤمن ويترك مُقوِّمات الحياة وأسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقي بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قُوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالى تكون لهم الكلمة العليا والغلبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما فى أيديهم من أسباب الحياة .

وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلّة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفى أن نأخذ عطاء الألوهية من أمر ونهى وتكليف وعبادة ، ونغفل أسباب الحياة ومُقوّماتها المادية التى لا قوامَ للحياة إلا بها .

فى حين أن المؤمن أوْلَى بمقوّمات الحياة التى جعلها الخالق فى الكون من الكافر الذى لا يؤمن بإله .

إذن : فمن الدين ألاَّ تمكِّن أعداء الله من السيطرة على مُقوِّمات حياتك ، وألاَّ تجعلَهم يتفوقون عليك .

وقوله : ﴿مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ .. ⟨١٨⟩﴾ [الإسراء]

أى : أن تفاعل الأشياء معك ليس مُطْلقاً ، بل للمشيئة تدخُّلٌ فى هذه المسألة ، فقد تفعل ، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى ، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء ، وفى هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية .

ومعنى ﴿مَا نَشَاءُ ..﴾ للمعجَّل و ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ للمعجَّل له .

وما دام هذا يريد العاجلة ، ويتطلع إلى رُقىِّ الحياة الدنيا وزينتها ، إذن : فالآخرة ليستْ فى باله ، وليست فى حُسْبانه ؛ لذلك

لم يعمل لها ، فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صفراً لا نصيبَ له فيها ؛ لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدّم ، وهذا قَدَّم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقيّ والتقدّم والتكريم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير في الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجدْهُ شيئاً ، كذلك إنْ عمل الكافرُ خيراً في الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجدْ له شيئاً من عمله ؛ لأنه أخذ جزاءه في الدنيا .

ثم تأتي المفاجأة : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

لأن الله تعالى لم يكُنْ في حُسْبانه حينما قدَّم الخير في الدنيا .

وفي آية أخرى يَصفه القرآن بقوله : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ . [إبراهيم]

فمرة يُشبِّه عمل الكافر بالماء الذي يبدو في السراب ، ومرة يُشبِّهه بالرماد ؛ لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخِصْب والنماء ، وهو مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

ووصفه بقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

---

(١) الصفوان : الحجر الأملس . قال ابن سيده : الصفاة الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت شيئاً . [ لسان العرب ـ مادة : صفا ] .

فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

والحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يُجسِّم لنا خَيْبة أمل الكافر فى الآخرة فى صورة مُحسَّة ظاهرة ، فمثَّلُ عمل الكافر كحجر أملس أصابه المطر ، فماذا تنتظر منه ؟ وماذا وراءه من الخير ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

أى : أعددناها له ، وخلقناها من أجله يُقاسى حرارتها ﴿ مَذْمُوماً ﴾ أى : يذمُّه الناس ، والإنسان لا يُذَمّ إلا إذا ارتكب شيئاً ما كان يصحّ له أنْ يرتكبه .

و ﴿ مَّدْحُوراً (١٨) ﴾ [الإسراء] مطروداً من رحمة الله .

وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة لمن أراد العاجلة وغفل عن الآخرة ، وما انتهى إليه من العذاب ، يعطينا صورة مقابلة ، صورة لمن كان أعقل وأكيس ، ففضَّل الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾

المتأمل فى أسلوب القرآن الكريم يجده عادة يُعطى الصورة ومقابلها ؛ لأن الشىء يزداد وضوحاً بمقابله ، والضِّد يظهر حُسْنه الضّد ، ونرى هذه المقابلات فى مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى

كما فى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ .. (١٩) ﴾ [الإسراء] فى مقابل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا .. (١٩) ﴾ [الإسراء]

أى : أراد ثوابها وعمل لها .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (١٩) ﴾ [الإسراء]

لأن الإيمان شَرْط فى قبول العمل ، وكُلُّ سعى للإنسان فى حركة الحياة لابُدَّ فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكى يُقبَل العمل ، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة ، فالعامل يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قدَّموا هذه الإنجازات لم يكُنْ فى بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدُّمها ؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فأقاموا لهم التماثيل ، وألَّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : انتهت المسألة : عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذى يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يُدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبى ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص[1] قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر سُمِّى بذلك لثقل مَشْيه ، واحدته قطاة . ومفحص القطاة : حيث تُفرِّخ فيه من الأرض . والفحص : شدة الطلب خلال كل شىء . والدجاجة تفحص برجليها وجناحيها فى التراب تتخذ لنفسها أفحوصة تبيض أو تجثم فيها [ لسان العرب - مادة : فحص ، قطا ] .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه ( ٧٣٨ ) من حديث جابر بن عبد الله . قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » .

ولكن سرعان ما نقرأ على باب المسجد لافتة عريضة تقول : أنشأه فلان ، وافتتحه فلان ... الخ مع أنه قد يكون من أموال الزكاة !! وهكذا يُفسد الإنسان على نفسه العمل ، ويُقدم بنفسه ما يُحبطه ، إذن : فقد فعل ليقال وقد قيل . وانتهت القضية .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذا جزاء أهل الآخرة الذين يعملون لها ، ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نِعَمه ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى ، يشكر عبده على طاعته ؟

وهذا يدل على أن العمل الإيماني يُصادف شُكْراً حتى من المخالف له ، فاللص مثلاً إنْ كان لديه شيء نفيس يخاف عليه ، فهل يضعه أمانة عند لصٍّ مثله ، أم عند الأمين الذي يحفظه ؟

فاللصّ لا يحترم اللص ، ولا يثق فيه ، في حين يحترم الأمين مع أنه مخالف له ، وكذلك الكذاب يحترم الصادق ، والخائن يحترم الأمين .

**ومن هنا كان كفار مكة رغم عدائهم للنبي ﷺ وكفرهم بما جاء به إلا أنهم كانوا يأتمنونه على الغالي والنفيس عندهم ؛ لأنهم واثقون من أمانته ، ويلقبونه « بالأمين » ، رغم ما بينهما من خلاف عقديّ جوهري ، فهم فعلاً يكذبونه ، أما عند حفْظ الأمانات فلن يغشُّوا أنفسهم ، لأن الأحفظ لأماناتهم محمد ﷺ[1] .**

---

(١) حدث هذا عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، يقول ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٤٨٥) أن النبي ﷺ أمر عليَّ بن أبي طالب « أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع ، التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ » .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذى تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك ، وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعُدْ أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَنِ استعان بك فى نقيصة فقد سقطْتَ من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ كُلاً ﴾ أى : كلاً الفريقين السابقين : مَن أراد العاجلة ، ومَن أراد الآخرة : ﴿ نُمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الله تعالى يمدُّ الجميع بمُقوِّمات الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات فى الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها فى المعصية ، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً ، فالأول تصدّق بماله ، والآخر شرب بماله خمراً .

إذن : فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية المتمثل فى منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌّ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]